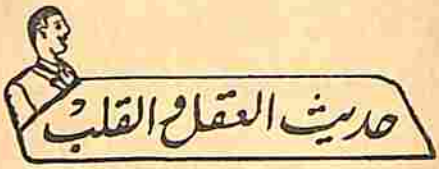

كن عقلا

بقلم
الدكتور : محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب — جامعة القاهرة

أقبل المريد المسترشد على شيخه المرشد ، وجلس بين يديه وقد بدأ على وجهه أن ثمة شيئا فى نفسه يريد أن يفضى به إلى شيخه . ولم يكد يستقر به المجلس حتى ابتدره الشيخ بقوله :

ما بالك يا بنى تبدو مهموما ، وماذا يعمل عمله فى نفسك ، ويملك عليك عقلك ؟ ألم أقل لك منذ بدأنا ندير حديث العقل والقلب فيما بيننا أنه ينبغى على كل واحد منا أن يكون مع صاحبه واضحا جليا لا يغمض ولا يخفى وصريحا مستقيما لا يدارى ولا يلتوى فذلك هو سبيل أصحاب العقل إلى معرفة الحقائق ، وطريق أرباب القلب إلى استكناه الدقائق ، وعدة أهل الضمير إلى تذوق الرقائق .

قال المريد المسترشد مجيبا :

الحق أنى منذ ذلك اليوم الذى دار فيه بيننا حديث أدعياء العلم والخلق ممن ليسوا على شىء من العلم أو الخلق وأنا ما زلت أذكر ما وجهته إلى من نصح وإرشاد ، ولا أنفك أعمل فكرى بصفة خاصة فى قولك لى :

«إذا أردت بعلمك وعملك وقولك وجه الله فكن عقلا منزها عن الأغراض ، وكن قلبا مبرأ عن الأمراض ، وكن ضميرا مجردا عن النزوات والأهواء ، ثم قل بعد ذلك ما شئت لمن شئت ، فلن يكون قولك عند ذلك إلا حقا وصدقا» لقد فكرت وفكرت طويلا ، ولا زلت كما ترانى ياسيدى أطيل التفكير فى كل من العقل والقلب والضمير ، وفى الكيفية التى أكون بها عقلا وقلبا وضميراً ،

وفيما عسى أن أتوسل به من مناهج ، وأتوصل إليه من نتائج .

قال الشيخ المرشد :

لعلك لو عرفت أولا معنى كل من العقل والقلب والضمير ، لكان ذلك أهدى لك وأجدى عليك وأعون على تبصرتك بالكيفية التى تصبح بها عقلا وقلبا وضميرا . وحسبى أن أقف معك فى حديث اليوم عند الأسماء التى يسمى بها العقل من ناحية ، وعند المعانى التى تنطوى عليها هذه الأسماء من ناحية أخرى ، وعند بعض التعريفات التى يحاول أصحابها أن يكشفوا بها عن ماهية العقل وحقيقته من ناحية ثالثة .

قال المريد المسترشد متسائلا :

فماذا للعقل إذن من أسماء ، وماذا لكل اسم من معنى ، وإلى أين ينتهى هذا كله من تحديد المعنى الجامع لمعانى العقل المتعددة بتعدد أسمائه ؟

أجاب الشيخ المرشد بقوله :

لقد تعددت أسماء العقل كما سبق أن أشرت إلى ذلك آنفا ، ولكنى أكتفى بأن أذكر لك منها العقل وهو أكثرها استعمالا ، واللب والحجا والنهى والحجر ، ويتفاوت استعمالها كثرة وقلة .

فأما لم سمى العقل عقلا ، فذلك لأنه يعقل صاحبه عن ركوب شهواته وإتيان المكاره والمضار ، وإن مثل العقل فيما يعقل ويضبط من أمر الإنسان ، كمثل العقال فيما يمنع الناقة من الشرود والنفار ، ومن هنا يمكن أن يقال إن العقل هو عقال النفس .

وأما لم سمى العقل لبا ، فذلك لأنه صفوة الروح ولبابه وخالصه .

وأما لم سمى العقل حجا فذلك لما يعول عليه فيه من إصابة الحجة والاستظهار على المعانى به .

وأما لم سمى العقل بالنهى ، فذلك لأنه ينتهى إليه الذكاء والمعرفة والنظر من ناحية ، ولأنه نهاية ما يمنح الله لعبده من أداة يستعين بها على إصلاح حاله فى الدنيا ، وصلاح مآله فى الأخرة من ناحية أخرى .

وأما لم سمى العقل حجرا ، فذلك لما فيه من معنى المنع عن ركوب المناهى . ومن هنا يقال للإنسان الضابط لنفسه المالك لحسه الكابح لشهواته ونزواته إنه لذو حجر .

وهنا قال المريد المسترشد وكأنه يعترض :

ولكن ألا ترى ياسيدى أن أسماء العقل هذه ، وما أوردت من معانيها

لاتدل إلا على ناحية معينة من نواحى العقل ، وهى الناحية الخلقية العملية التى يكون فيها العقل مدبرا لحياة صاحبه فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أشباهه ؛ ونحن نعلم فيما نعلم أن للعقل قيمة أخرى غير قيمته العملية ، وأعنى بها قيمة النظرية الخالصة ، ولعله فيما يقوم به فى ناحيته النظرية هذه من روية وتدبر ، ومن تعقل وتأمل ، ومن تعرف للحقائق وتصرف فى الدقائق ، لعله فى هذا كله أبعد أثرا وأعظم خطراً مما هو فى ناحيته العملية ، بل ولعل المثل العليا الأخلاقية التى يحققها الأفراد والجماعات فى حياتهم العملية ، إنما هى ثمرة من ثمرات العقل النظرى الذى يصطنع النظر ، ويعمل الفكر ، ويحاول أن يحلل ويعلل ، وأن يفسر ويؤول ، وأن يلتمس من وراء هذا كله الحقيقة اليقينية ، والمبادىء الحقيقية التى هى بحق أساس لا منصرف عنه فى كل علم وكل عمل ، والتى لابد لكل عالم عامل من أن يتحقق بمعرفتها معرفة تامة حتى يتحقق بكمال العلم وكمال العمل .

قال الشيخ المرشد ، وهو يبتسم مترفقا بمريده المسترشد :

لقد تعجلت يابنى حقائق العلم ، كما تجاوزت حدود الطلب ، وما كان أحراك أن تتريث قليلا ، فلو قد فعلت لتبين لك أنى سأقف بك اليوم عند حد أسماء العقل ومعانيها من الناحية العملية على أن أتناول معانيه النظريه ، وأكشف عن ماهيته الحقيقية وذلك فى حديث مقبل . ولعلك لا تدرى أنى حين قلت لك : « كن عقلا ، وكن قلبا ، وكن ضميراً » ، فإنما كنت أعنى أن تكون عقلا واعيا ، وقلبا صافيا ، وضميراً صاحيا . وإنى حين أقول لك : كن عقلا واعيا » ، فإنما أعنى أن تكون عقلا مدركا محققا موغلا فى الحقائق ، بحيث تعلم علم اليقين ، وليس من شك فى أنك متى كنت كذلك فإنك على الصراط المستقيم فى طريق الحق المبين. ومن هنا ترى أنى لم أفرغ بعد من حديث العقل الذى أريدك أن تكونه . وإنما كانت تلك تمهيدات ومقدمات . وفيما يلى من أحاديث تأتى التفصيلات والثمرات ، وعندها تستطيع أن تفهم كيف تكون عقلا ، وكيف تصبغ حياتك العامة والخاصة بالصبغة العقلية ، حتى تظفر فى حياتك النظرية والعملية ، بالمعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية .